بيان القواعد الأربع

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب التميمي

خالد بن سعود البليهد

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين وبعد:

فهذا شرح مختصر لرسالة القواعد الأربع لشيخ الإسلام مجدد الدعوة النجدية الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي. وهذه الرسالة المختصرة الجامعة الماتعة قد رسخ فيها الشيخ معنى التوحيد وأزال الشبهة عن حقيقة الشرك وبين بطلان الشرك وبيان حال المشركين وقارن بين المشركين الأولين والمشركين المتأخرين.

وينبغي للعالم السلفي والمعلم السني أن يربي أتباعه على إتقان مثل هذه الرسائل ومدارستها لأن الطالب إذا فقه هذه الرسائل في مبتدأ الطلب كان معنى التوحيد والحذر من الشرك أمرا حاضرا في ذهنه فينشأ على تعظيم العقيدة الصحيحة والحساسية والبعد عن مظاهر الشرك ووسائله وتصبح لديه حجة ظاهرة وغيرة محمودة على إبطال الشرك وبيان التوحيد للمسلمين.

والله الهادي والموفق إلى الصراط المستقيم.

كتبه

عفا الله عنه

ابن بليهد النجدي الحنبلي

١٤٤٤/١/١٠

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ. فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثُ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ).

بدأ الشيخ رسالته بالدعاء للمتعلم بالتوفيق والإعانة والبركة في العمل وهذا يدل على شفقة الشيخ ونصحه للطلاب وينبغي للعالم أن يظهر نصحه وشفقته بالناس ليقبلوا الحق منه ويقتدوا بعلمه وكلما تواضع العالم كان له أثر حسن في الخلق.

ثم دعا له بالتحلي بثلاث خصال بالشكر على السراء والصبر على الضراء والاستغفار من الذنوب وهذه الخصال هي جماع السعادة لأنها تجمع بين مقام الشكر قال تعالى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ).﴿١٥٢ البقرة﴾ ومقام الصبر قال تعالى: (وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ).﴿١٧٧ البقرة﴾ ومقام التوبة قال تعالى: (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).﴿٣١ النور﴾ وقال رسول الله ﷺ: (عَجَباً لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأِحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ). رواه مسلم. فالمؤمن إذا اغتنى لم يطغى ويكفر ربه بل يشكر الله على هذه النعمة لأنها منة من الله وإذا نزل به الفقر والمرض لم يجزع ويأس من رحمة الله بل يصبر ويفوض أمره لله وإذا أذنب لم يقنط من رحمة الله بل يستغفر ربه ويقر بذنبه وينيب إليه فقلبه منكسر متعلق بالله في جميع أحواله وإذا جمع العبد بين هذه المقامات وغلبت على حاله وعمله سعد في الدنيا والآخرة وكان من الفائزين.

(اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)).

ينبه الشيخ المتعلم بقوله اعلم ليستدعي انتباهه ثم دعا له بالهداية إلى الطاعة والعبد مفتقر في العبادة إلى هداية الله وتوفيقه في كل أحواله قال تعالى: (وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ).﴿٢١٣ البقرة﴾ وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى والتُّقَى، والعَفَافَ والغِنَى). رواه مسلم. فلا توفيق للعبد ولا هداية إلا بالله وحده لأنه سبحانه يصرف القلوب كيف شاء.

ثم بين الشيخ ملة أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهي التوحيد أن تفرد الله وحده بعبادتك وتخلص له الدين دون ما سواه فلا تشرك به أحدا كائنا من كان في جميع عبادتك فإذا حققت ذلك كنت موحدا على ملة إبراهيم قال تعالى: (قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).﴿١٣٥ البقرة﴾ فإبراهيم عليه الصلاة والسلام كان موحدا مائلا عن الشرك وأهله وقد أمر رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وأمته باتباع ملة إبراهيم قال تعالى: (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).﴿١٢٣ النحل﴾ فالموحد من أتباع الحنيفية والمشرك ليس من أتباع الحنيفية بل هو من أتباع الوثنية لأنه يعبد مخلوقا غير الله.

ثم استدل الشيخ بقوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ).﴿٥٦ الذاريات﴾ وهي تدل صراحة على أن الغاية والحكمة من خلق جميع الخلق إنسهم وجنهم هي عبادة الله وحده لا شريك له لأنه المستحق للعبادة لأنه خالقهم ورازقهم ومدبرهم أما المخلوق العاجز الفقير الفاني فليس مستحقا للعبادة.

(فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّى صَلاةً إِلا مَعَ الطَّهَارَةِ).

يؤكد الشيخ على أصل عظيم في باب الاعتقاد دل عليه الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وهو أن العبادة بجميع أنواعها الظاهرة والباطنة القولية والفعلية لا تسمى عبادة في الشرع ولا تجزئ ولا تصح من فاعلها إلا إذا بنيت على عقيدة التوحيد أما إذا خلت من التوحيد فليست بعبادة في الشرع ولا يترتب عليها ثواب ولا نجاة يوم القيامة قال تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ).﴿٥ الفاتحة﴾ وقال تعالى: (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ).﴿٢ الزمر﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا لأهل اليمن: (إِنَّكَ تَقْدَمُ على قَوْمٍ مِن أَهْلِ الكِتابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ ما تَدْعُوهُمْ إلى أنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعالى، فَإذا عَرَفُوا ذلكَ، فأخْبِرْهُمْ أنَّ اللَّهَ قدْ فَرَضَ عليهم خَمْسَ صَلَواتٍ في يَومِهِمْ ولَيْلَتِهِمْ). رواه البخاري. فالتوحيد شرط لصحة العبادة لا تصح إلا به والمشرك لا تقبل عبادته أبدا لأنه لم يخلص العبادة لله والإخلاص شرط لقبول العبادة قال تعالى: (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا).﴿١١٠ الكهف﴾ كما أن الصلاة لا تسمى صلاة في الشرع ولا تجزئ عن صاحبها ولا يترتب عليها الثواب إلا إذا بنيت على طهارة شرعية لأن الطهارة من الحدث شرط لصحة الصلاة فلا صلاة إلا بطهارة ومن صلى بلا طهارة فصلاته باطلة باتفاق أهل العلم لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تُقْبَلُ صَلاةُ أحَدِكُمْ إذا أحْدَثَ حتّى يَتَوَضَّأَ). رواه مسلم. وتقرير هذا المعنى يؤكد على أهمية التوحيد للعبد وأنه لا نجاة له ولا فلاح في الآخرة إلا بالتمسك بالتوحيد وأن العبرة ليست بكثرة العمل إنما في تحقيق التوحيد.

(فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ).

قرر الشيخ حقيقة اعتقادية ثابتة في نصوص الشرع وهي أن التوحيد إذا طرأ عليه الشرك فسد ولم ينفع صاحبه لأنه أتى بأمر يناقضه شرعا فلا يجتمع التوحيد مع الشرك لأنهما نقيضان إذا ثبت أحدهما ارتفع الآخر قال تعالى: (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا).﴿٢٥٦ البقرة﴾ وفي صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَن قالَ: لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بما يُعْبَدُ مَن دُونِ اللهِ، حَرُمَ مالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسابُهُ على اللَّهِ). فلا يصح توحيد العبد حتى يجتنب عبادة الطاغوت بكل صورها والمشرك عابد للطاغوت. كما أن الطهارة إذا طرأ عليها الحدث أفسدها بالنص والإجماع لأنه ينقض حكمها شرعا كما في حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه قال: (شُكِيَ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: الرَّجُلُ يُخَيَّلُ إلَيْهِ أنَّه يَجِدُ الشَّيْءَ في الصَّلاةِ، قالَ: لا يَنْصَرِفُ حتّى يَسْمع صَوْتًا، أوْ يَجِدَ رِيحًا). متفق عليه. فلو تكلم الإنسان بكلمة التوحيد ألف مرة ثم وقع في الشرك مرة واحدة بطل إيمانه لأنه لم يحقق معنى كلمة التوحيد ولم يعمل بمقتضاها ولم ينقاد لها ومع وضوح هذا الحقيقة في نصوص الشرع إلا أن كثيرا من المتأخرين يجهلونها ويعتقدون أن كل من نطق بلا إله إلا الله موحد ناج في الآخرة ولو كان مشركا بالله يعبد القبور والأولياء وهذا من غربة الدين في زماننا.

(فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ، مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ).

بين الشيخ أن الشرك يفسد العبادة كما سبق بيانه. وللشرك مفسدة عظيمة أخرى وهي أنه يحبط العمل كله ويبطل ثوابه لأن الله لا يقبل عمل المشرك كما نص على ذلك في كتابه بقوله تعالى: (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ).﴿٦٥ الزمر﴾ وقال تعالى: (وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ).﴿٢١٧ البقرة﴾ وقال تعالى: (وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ).﴿٥ المائدة﴾ وقال تعالى: (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ).﴿٨٨ الأنعام﴾ فشرط قبول العمل الإسلام والمشرك قد بطل إسلامه وهذا يدل على خطورة الشرك ونتيجته المؤلمة في الآخرة.

ثم ذكر الشيخ أن المشرك من الخالدين في النار وهذا حق ثبت في القرآن والسنة قال تعالى: (إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ).﴿٧٢ المائدة﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ مَاتَ وَهُوَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيئًا، دَخَلَ النّارَ). متفق عليه. فكل من سوى الخالق بالمخلوق وصرف له العبادة من دون الله استحق أن يخلد في النار عياذا بالله.

والحاصل أن الشرك الأكبر له أربعة مفاسد:

الأولى: أنه يفسد العبادة كما ورد في الحديث القدسي: (قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ). رواه مسلم.

الثانية: أنه يحبط العمل كله كما قال تعالى: (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ).﴿٦٥ الزمر﴾

الثالثة: أن الله لا يغفر للمشرك أبدا كما قال تعالى: (إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ).﴿٤٨ النساء﴾

الرابعة: أنه يخرج من الملة ويخلد صاحبه في النار كما قال تعالى: (إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ).﴿٧٢ المائدة﴾

(عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشِّرْكُ بِاللهِ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ١١٦)).

بعد ما بين الشيخ مفاسد الشرك الأكبر متدرجا مع المتعلم وصل معه إلى نتيجة مهمة وهي أهمية معرفة خطر الشرك والحذر من الوقوع فيه والفرار منه والتخلص من هذه الشبكة الفاسدة التي يصطاد بها رؤوس الضلالة من الصوفية والرافضة جهال المسلمين ويغررون بهم باسم محبة أهل البيت ومحبة الأولياء وكراماتهم ومنزلتهم عند الله حتى أوقعوا فيها كثيرا من الأغرار وأرضوا المنتسبين للعلم بالرئاسات والعطاءات فصاروا علماء سوء يحمون مشاهد الشرك ويحاربون الموحدين. والشيخ يعتني عناية فائقة بالجانب العملي التطبيقي وهذا ما يميز دعوته عن غيره أما كثير من المتأخرين فرضوا برواية العلم ولم يطبقوه في واقعهم وداهنوا المشركين.

ثم استدل الشيخ مبينا خطورة الشرك بقوله تعالى: (إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ).﴿٤٨ النساء﴾ وهذه الآية دليل صريح على أن الله تعالى لا يغفر الشرك أبدا لأنه ذنب عظيم مناف لتفرده بالألوهية ويغفر سائر الذنوب ولو عظمت وهذا يبين خطورة الشرك فالمشرك خاسر يوم القيامة ومصيره الخلود في النار ولا ينفعه عمله في الدنيا ولو صلى وصام وتصدق الدهر كله ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعالى: أَنَا أَغْنى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فيه مَعِي غيرِي، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ). رواه مسلم.

(وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ).

يوضح الشيخ حقيقة الشرك ويكشف شبهات المشركين بذكر أربعة قواعد استنبطها من كتاب الله عز وجل ولم يبتدعها من نفسه وهذا مؤشر على منهج الشيخ في بيان مسائل التوحيد والإيمان أنه يستنبط القواعد والضوابط والمعاني من كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم ولا يتبع منهج أهل الرأي والكلام سائرا على طريقة علماء السلف الصالح أهل الحديث. واستنباط القواعد والتقاسيم من النصوص وكلام المتقدمين منهج حسن جار على جادة أهل العلم ولا يعترض عليه بشرط أن يكون الاستنباط صحيحا موافقا لأصول أهل السنة لا يخالف أصلا من أصول الشرع ولا ينعقد الولاء والبراء عليه. وأما تشغيب أهل البدع وإنكارهم لتقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام فكلام باطل لا يستند على النصوص ومخالف لمنهج العلماء الذين تواطئوا على وضع المصطلحات والقواعد والشروط وهذا محل اتفاق بينهم في الجملة وقد استعملوه في سائر العلوم الشرعية وليست العبرة بالاصطلاح إنما العبرة بالمضمون فأنت مخير في اختيار الاصطلاح والتقسيم الذي يناسبك لكن لا تخالف دلالة النصوص. والعلماء لم ينكروا أمرا ثابتا في الشرع ولم يزيدوا في الدين إنما اجتهدوا لتقريب العلم وضبطه وإيضاحه ولم يكن مقصودهم التقرب بألفاظها وجعلها بمنزلة المنصوص عليه فهي مجرد وسيلة لتقريب العلم ومن أنكر هذا يلزمه أن ينكر سائر تقاسيم الفقهاء.

(الْقَاعِدَةُ الأُولَى: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ، الْمُدَبِّرُ وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلَهُمْ فِي الإِسْلامِ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٣١)

ذكر الشيخ مقدمتين مهمتين في معرفة حقيقة الشرك:

المقدمة الأولى: أن كفار قريش الذين كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وقاتلهم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية بتفرد الله بالخلق والرزق والتدبير فهم يعتقدون أنه لا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا محيي ولا مميت إلا الله والدليل على أنهم مقرون بالربوبية قوله تعالى: (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ).﴿٣١ يونس﴾ فالله يأمر نبيه محمدا أن يسأل المشركين الذين يعبدون الأوثان من الذي ينزل عليكم الرزق من السماء ويخرج الرزق من الأرض وييسر أسباب الرزق؟ ومن الذي خلق السمع والبصر ويملكهما؟ ومن الذي يخرج كل حي من كل ميت يخرج النبات من الحب ويخرج المؤمن من الكافر والطائر من البيضة والعكس؟ ومن الذي يدبر كل الأمور في العالم العلوي والعالم السفلي؟ فسيجيبونك بأنه الله وحده لأنهم يقرون أنه لا أحد يشارك الله في أفعاله. فأمره أن يسألهم ليحتج عليهم بالربوبية على ما أنكروه من الألوهية فالذي أفردتموه بأفعاله هو المستحق للعبادة فكيف تعبدون مخلوقا ليس ربا لكم أفلا تتقون الله فتفردونه في ألوهيته كما أفردتموه في ربوبيته.

المقدمة الثانية: أن اعتقادهم في توحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام وحكم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بالكفر وقاتلهم واستباح دمائهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

(أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إلَهَ إلّا اللهُ، فإذا قالُوها عَصَموا مِنِّي دِماءَهُم وأمْوالَهُم إلّا بِحَقِّها وحِسابُهُم على اللهِ). رواه الترمذي. وفي صحيح البخاري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب عند موته: (يا عَمِّ، قُلْ: لا إلَهَ إلّا اللَّهُ، كَلِمَةً أشْهَدُ لكَ بها عِنْدَ اللَّهِ). ثم مات ولم يقر بالتوحيد بتفرد الله بالألوهية فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر له فنهاه الله تعالى بقوله: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ).﴿١١٣ التوبة﴾ وهذا دليل صريح في أن المنكر للألوهية المعرض عن توحيد الله مشرك خالد في النار. فلو كان إقرارهم بالربوبية كافيا في دخولهم الإسلام لحكم الشرع بإسلامهم ولم يطالبهم بالألوهية ولكنهم مخلون في أصل التوحيد لأنهم عارفون بتفرد الرب في أفعاله لكنهم لم ينقادوا لله ولم يخلصوا إليه في تقربهم وعبادتهم بل أشركوا معه غيره كإبليس الذي يقر بربوبية الله وعزته لكنه يستكبر عن عبادته فلم ينفعه ذلك قال تعالى: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ).﴿٨٢ ص﴾ قال قتادة: (علم عدو الله أنه ليست له عزة). ويستدل بهذه القاعدة على إبطال شرك المتأخرين لأن اعتقادهم موافق لاعتقاد المشركين المتقدمين في إقرارهم بالربوبية وإعراضهم عن توحيد الألوهية.

(الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلا لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ، فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر: ٣). وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ﴾ (يونس:١٨)).

يبين الشيخ الأصل الفاسد الذي بنى المشركون عليه شركهم وبرروا فيه جنايتهم الشنيعة وهو أنهم يزعمون أنهم لم يعبدوا أوثانهم استقلالا وتقربا لها لذاتها وإنما اتخذوها وسيلة وعبدوها لسببين:

السبب الأول: التقرب إلى الله لأن لها فيما يزعمون منزلة خاصة عند الله فالتقرب لها يقرب إلى الله كما حكى الله مقالتهم بقوله تعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ).﴿٣ الزمر﴾ قال ابن جرير: (يقولون لهم: ما نعبدكم أيها الآلهة إلا لتقربونا إلى الله زلفى قربة ومنزلة).

السبب الثاني: وهو نتيجة للأول إنما نعبدهم ليشفعوا لنا عند الله كما حكى الله عنهم بقوله تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ).﴿١٨ يونس﴾ فالمشركون يعبدون هؤلاء المعظمون وهم عاجزون لا ينفعونهم في الدنيا والآخرة ولا يحمونهم مما يضرهم ويقولون إنهم يعبدونهم ليرفعوا حوائجهم إلى الله ويشفعون في قضائها وهذا المسلك أحدثوه من أنفسهم ولم يأذن به الله عز وجل ولذلك أبطله الله بقوله: (قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ).﴿١٨ يونس﴾ فلا شريك ولا معين ولا ظهير مع الله لأنه أحد فرد

صمد ولا أحد من الخلق أعلم من الله فكيف تدعون كذبا وزورا أن له شركاء تدعونهم من دون الله وتنزلون به حوائجكم. ومنشأ انحراف المشركين أنهم قاسوا الله الذي ليس كمثله شيء بحال ملوك الدنيا بعقلهم الفاسد فظنوا أن الله كالملك يكون بين يديه وجهاء وشفعاء ومقربون يرفعون له حوائج الخلق ويشفعون لهم ويقضون حوائجهم وهذا قياس فاسد باطل مخالف للشرع. فهؤلاء المشركون تركوا التوحيد واستباحوا الشرك بقصدهم الفاسد ولا عبرة بقصد الإنسان إذا كان مخالفا لحكم الشرع فلا بد من موافقة الشرع باطنا بالإخلاص وظاهرا بالاتباع وإن زعموا أنهم لم يقصدوا عبادة الآلهة لكن الشرع حكم بأن عملهم شرك لأنه عبادة من دون الله ولم يعذرهم لأنهم صرفوا العبادة لغير الله فكل من اتخذ شريكا مع الله فقد عبده من دون الله ولا ينظر إلى ما يزعمه ويدعيه قال تعالى: (وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا).﴿٤٨ النساء﴾ وقال تعالى: (وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا).﴿١١٦ النساء﴾.

(وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ).

ذكر الشيخ مسألة الشفاعة ليبطل قياس المشركين ويبطل شبهتهم فالله غني عن كل أحد لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه شيء ولا يحتاج في تثبيت ملكه لأحد خلافا لملوك الدنيا الذين يحتاجون للشفعاء في تثبيت ملكهم ويخافون منهم فيقبلون وساطاتهم مراعاة لهم فالله لا يقبل شفاعة أحد لحاجته إليه وإنما يقبلها تفضلا وتكرما منه وهذا من باب الإحسان.

وقد ذكر الشيخ أن الشفاعة عند الله تعالى قسمان:

الأول: شفاعة دل الشرع على نفيها وبطلانها وهي شفاعة المشركين.

الثاني: شفاعة دل الشرع على ثبوتها وصحتها وهي شفاعة الموحدين.

والمرجع في ثبوت الشفاعة نصوص القرآن والسنة وليس العقل والذوق.

(فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلا اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة:٢٥٤)).

هذا هو القسم الأول من الشفاعة الشفاعة التي أبطلها الله تعالى في كتابه وهي التي يطلب المشرك من المخلوق طلبا لا يقدر عليه إلا الله تعالى كأن يطلب منه الشفاء من مرضه أو يطلبه الولد وهو عقيم أو يطلبه المغفرة من جميع ذنوبه أو يطلبه النجاة من النار ودخول الجنة في الآخرة أو يطلب منه أن يرد عليه ميته ويحييه من جديد وهكذا كل أمر لا يقدر عليه إلا الله فيحرم طلبه من غير الله لأن أفعال الرب من إحياء وإماتة وشفاء ورزق ومغفرة ونعيم كلها من خصائص الله تفرد بها دون خلقه والمخلوق مهما بلغ عاجز عنها لا ينفع ولا يضر كما قال تعالى: (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَآءكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا اسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ).﴿١٤ فاطر﴾

ثم استدل الشيخ بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ).﴿٢٥٤ البقرة﴾ قال قتادة: (قد علم الله أن ناسا يتحابون في الدنيا ويشفع بعضهم لبعض فأما يوم القيامة فلا خلة إلا خلة المتقين). وهذه الآية تدل على أن المؤمن إنما ينتفع بصالح عمله من صدقة وغيرها في يوم لا تنفع فيه الصحبة الفاسدة ولا تنفع فيه الشفاعة الباطلة للمشركين لأنها بنيت على أصلين فاسدين:

الأول: الشرك بالله.

الثاني: عمل محدث لم يأذن به الله.

والمشركون قد ظلموا أنفسهم ظلما كبيرا لأنهم أشركوا مع الله غيره قال تعالى: (لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ).﴿٥١ الأنعام﴾ فهذه الآية دليل على الشفاعة المنفية فلا يستطيع أحد أن يشفع عند الله تعالى مهما بلغت منزلته عند الخلق إلا بإذن الله ويوم القيامة يبطل الله شفاعة المشركين الذين كانوا يزعمون في الدنيا أنها تنفعهم في الآخرة وتذهب هباء منثورا قال تعالى: (وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ).﴿٩٤ الأنعام﴾

(وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكَرَّمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: ٢٥٥)).

هذا هو القسم الثاني من الشفاعة وهي الشفاعة التي أثبتها الله في كتابه وأثبتها النبي صلى الله عليه وسلم في سنته الصحيحة وهي التي يطلبها الموحد من الله عز وجل على سبيل الافتقار والتذلل ويأذن الله بحصول نفعها وتحقق مطلبها وإنما تصح الشفاعة بشرطين:

الأول: أن يكون طالب الشفاعة والمطلوبة له موحدا مفردا العبادة لله غير مشرك به قال تعالى: (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ).﴿٢٨ الأنبياء﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: (يقول: الذين ارتضى لهم شهادة أن لا إله إلا الله). وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (قِيلَ يا رَسُولَ اللَّهِ مَن أسْعَدُ النّاسِ بشَفاعَتِكَ يَومَ القِيامَةِ؟ قالَ رَسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: لقَدْ ظَنَنْتُ يا أبا هُرَيْرَةَ أنْ لا يَسْألُنِي عن هذا الحَديثِ أحَدٌ أوَّلُ مِنْكَ لِما رَأَيْتُ مِن حِرْصِكَ على الحَديثِ أسْعَدُ النّاسِ بشَفاعَتي يَومَ القِيامَةِ، مَن قالَ لا إلَهَ إلّا اللَّهُ، خالِصًا مِن قَلْبِهِ، أوْ نَفْسِهِ). رواه البخاري.

الثاني: أن يأذن الله بحصولها تفضلا منه وإحسانا بعباده قال تعالى: (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى).﴿٢٦ النجم﴾

فالشفاعة لا تنال إلا الموحد المخلص في عبادته أما المشرك فلا ينتفع برحمة الله وشفاعة النبي لأنه قطع طريق الرحمة في الدنيا بتسويته بين الخالق والمخلوق. وحقيقة الشفاعة

الثابتة أن الله يكرم الشافع بقبول شفاعته لصلاحه وإخلاصه ويأذن بحصوول الشفاعة للمشفوع له وكل هذا داخل في صفة رحمة الله وإحسانه وعلمه وقدرته.

ثم استدل الشيخ بقوله تعالى: (مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ).﴿٢٥٥ البقرة﴾ وهذا استفهام بمعنى الإنكار ومعناه لا أحد يشفع عند الله إلا من بعد أن يأذن الله له ويرضى عمله وفي حديث الشفاعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فأَسجُدُ له، فيقولُ: ارفَعْ رأسَكَ يا محمَّدُ، وتكلَّمْ يُسمَعْ منكَ، وقُلْ يُقبَلْ منكَ، واشفَعْ تُشَفَّعْ). رواه أحمد. فالشفاعة كلها حق لله لا يتصرف فيها المخلوق ولا يتجاسر عليها إلا بعد أمر الله فمن رحمه الله قبل الشفاعة فيه ومن عاقبه لم يقبل الشفاعة فيه. وبهذا يتبين أن استغاثة المشركين عباد القبور بالأولياء وطلب الشفاعة منهم باطلة وسعيهم في ضلال لأنهم يسألون الأموات أمورا لا يقدر عليها إلا الله ولأن الله نهى عن الشرك ولم يأذن به في جميع أحواله وصوره قال تعالى: (يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا).﴿١٠٩ طه﴾

(الْقَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَشْجَارَ وَالأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ﴾ (الأنفال: ٣٩)).

بين الشيخ حقيقة ثابتة في الشرع في باب التوحيد أن النبي صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله وكلفه بهداية الناس كما قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا).﴿٤٥ الأحزاب﴾ وروى البخاري عن عطاء بن يسار قال: (لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهمَا، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي التَّوْرَاةِ، قَالَ: أَجَلْ؛ واللَّهِ إِنَّه لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)﴿٤٥ الأحزاب﴾ وحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي ورَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ، لَيسَ بفَظٍّ ولَا غَلِيظٍ، ولَا سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، ولَا يَدْفَعُ بالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، ولَكِنْ يَعْفُو ويَغْفِرُ، ولَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حتَّى يُقِيمَ بِه المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ويَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وآذَانًا صُمًّا، وقُلُوبًا غُلْفًا). قد بعثه الله تعالى إلى قوم يشركون مع الله غيره في عبادته فيتخذون آلهة باطلة يتقربون لها ويعظمونها وينذرون لها ويرفعونها إلى منزلة الله وكانوا متفرقين في آلهتهم منهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الأولياء ومنهم من يعبد الأوثان ومنهم من يعبد الأفلاك السماوية ومع ذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم ساوى بينهم في الحكم وحكم بكفرهم ولم يفرق بينهم لأنهم جميعهم اشتركوا في فعل الشرك ولم يلتفت في حكمه عليهم إلى اختلاف آلهتهم ومعبوداتهم لأن ذلك لا يؤثر المهم هو وقوع الشرك منهم ولذلك شرع قتالهم وجهادهم

في سبيل الله لأنهم كفروا بالله ورسوله واستدل الشيخ على هذا المعنى بقوله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه).﴿١٩٣ البقرة﴾ قال ابن عباس: (حتى لا يكون شرك). ومعنى الآية قاتلوا المشركين حتى لا يبقى شرك ظاهر يصد عن سبيل الله فيذعن العباد لأحكام الإسلام ويهتدي للحق من هداه الله ويكون دين الإسلام ظاهرا على سائر الأديان الباطلة وهذه هي الغاية المقصودة من قتال الموحدين للمشركين.

(وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصلت: ٣٧)).

استدل الشيخ على شرك عبادة الشمس والقمر بقوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ).﴿٣٧ فصلت﴾ وفي هذه الآية الكريمة يبين الله عز وجل لعباده بأنه خلق آيات كونية عظيمة تدل على أنه المتفرد بالعبادة وهو المستحق وحده بأن يعبد دون ما سواه وذكر منها أربعة آيات عظيمة الليل والنهار والشمس والقمر ثم نهى سبحانه عن السجود والتقرب للشمس والقمر لأنهما مخلوقتان عاجزتان مدبرتان قد سخرها الله للإنسان لتحقيق مصالحه ومنافعه قال تعالى: (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى).﴿٢ الرعد﴾ فكيف يقصدهما الإنسان وهما لا ينفعان ولا يضران بأنفسهما. ثم أمر الله بعبادته وحده لأن هو الذي خلقهما وسخرهما وأوجد فيهما النفع وإن شاء الله طمس نورهما وعطل نفعهما فأصبح الخلق في حيرة وظلمة لا يبصرون شيئا قال تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ).﴿٧١ القصص﴾ فأخلصوا له العبادة وتبرأوا من الشرك إن كنتم تعبدون الله حقا وصدقا.

(وَدَلِيلُ الْمَلائِكَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً...﴾ الآية (آل عمران: ٨٠)).

استدل الشيخ على شرك عبادة الملائكة بقوله تعالى: (وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً).﴿٨٠ آل عمران﴾ يخبر الله تعالى أنه لا يتصور لنبي أرسله الله لهداية خلقه أن يأمر الناس بعبادة الملائكة أو يأمرهم بعبادته مع الله لأن عبادة الملائكة والنبيين واتخاذهم أندادا مع الله تعتبر شركا والنبي لا يدعو إلى الشرك بالله إنما يدعو الخلق إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله ولهذا قال: (أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ).﴿٨٠ آل عمران﴾ وقال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ).﴿٢٥ الأنبياء﴾ وقد كان مشركو العرب يعظمون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله فيتقربون لهم ويتخذونهم شفعاء من دون الله قال تعالى: (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ).﴿١٩ الزخرف﴾ وهذا من سفه عقولهم لأن الملائكة خلقهم الله وكلفهم بعبادته آناء الليل والنهار وهم ملتزمون بطاعته لا يعصونه أبدا وهم عباد لله لا يملكون نفعا ولا ضرا قال تعالى: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ).﴿٢٩ الأنبياء﴾ فالمشركون ارتكبوا ثلاث جنايات ادعوا أن لله ولدا ثم ادعوا أن الملائكة بنات الله ثم عبدوهم من دون الله.

(وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ الآية (المائدة: ١١٦)).

استدل الشيخ على شرك عبادة الأنبياء بقوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ). ﴿١١٦ المائدة﴾ وفي هذه الآية نهي صريح عن عبادة الأنبياء حيث ينكر الله عز وجل على النصارى عبادتهم لعيسى عليه السلام ويوبخهم بقولهم: إن الله ثالث ثلاثة. فيقول الله لعيسى وهو أعلم به: أأنت أمرت الناس بعبادتك وأمك من دون الله؟ فيتبرأ عيسى عليه السلام من شرك النصارى بتنزيهه سبحانه من الشركاء والأنداد وينفي عن نفسه الشرك ويقول: ما ينبغي لي أبدا ولا يليق بنبي مثلي أن يدعي وصفا وحالا لا يليق إلا بالله لأنه لا يحق لي ولا لغيري من الأنبياء المقربين أن يدعوا حقا عظيما من حقوق الله فينصبوا أنفسهم آلهة دون الله فلا يستحق العبادة والتأله إلا الله أما العبد المخلوق فعاجز فقير مدبر لا يملك نفعا ولا ضرا. ثم يقول عيسى عليه السلام: إن كنت أمرت بالشرك فأنت تعلمه لا يخفى عليك شيئ لأنك تعلم السر وأخفى تعلم ما أسر به في نفسي ولا أعلم ما تسر به في نفسك لأنك موصوف بكمال العلم مطلع على خفايا الأمور وبواطنها وهذا دليل عظيم على استحقاقك للعبودية دون غيرك من الخلق الذين يخفى عليهم سرائر الأمور وعلانيتها. وقد بين النبي عيسى عليه السلام أن الشرك ينافي مقام العبودية ونزه الله عن الشرك لأنه من النقائص.

وقد ضل في عيسى بن مريم طائفتان:

الأولى: النصارى عظموه وغلوا في محبته وتقديسه حتى رفعوه إلى منزلة الرب فعبدوه من دون الله قال تعالى: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ).

الثانية: اليهود جفوه وبالغوا في بغضه والبراءة منه والطعن فيه حتى حاربوه وسعوا في تشريده وقتله قال تعالى: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ).

والحاصل أن الغلو في محبة النبي ومدحه وتقديسه سبب عظيم لعبادته من دون الله وفي زماننا عبد فئام من الناس النبي محمدا صلى الله عليه وسلم وخلعوا عليه أوصاف الرب جل وعلا وعبدوه من دون الله واتخذوه شريكا مع الله وقد حذر صلى الله عليه وسلم أمته من الوقوع في هذا البلاء العظيم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ). رواه البخاري.

(وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ...﴾ الآية (الإسراء: ٥٧)).

استدل الشيخ على شرك عبادة الأولياء بقوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا).﴿٥٧ الإسراء﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه: ((إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ) قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم). وفي هذه الآية يذم الله تعالى عبادة المشركين للصالحين فيخبر أن المشركين يتعلقون بالصالحين يرجون منهم قضاء الحاجات ودفع الكربات في الوقت الذي يكون المدعون مشغولون بطلب القربة من إلى الله قد أنزلوا حاجتهم ورجائهم وسؤالهم بالله يتقربون إليه بالعمل الصالح يدعون ربهم رغبا ورهبا يرجون رضاه وجنته ويخافون غضبه وناره فإذا كان هذا حال الصالحين المدعون أنهم عبيد عاجزون فقراء مدبرون لا يملكون نفع أنفسهم فضلا عن نفع غيرهم فكيف يتعلق بهم المشركون ويصرفون لهم العبادة التي هي حق لله وكان الواجب على المشركين أن يتعلقوا بالله ويخلصوا العبادة له ويحذروا عذابه وعقابه. وهذا يدل على جهلهم وانطماس فطرتهم وضعف بصيرتهم وسفه عقولهم لأنهم تعلقوا بضعيف منقطع كحال الغريق في البحر يتعلق بقشة قال تعالى: (وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ).﴿١٣٠ البقرة﴾ وفي الآية دليل على أن الذي ينجي العبد في الآخرة هو التقرب إلى الله بالعمل الصالح وليس التعلق بالمخلوقين. وقد فشا في أمتنا الشرك في الأولياء عند كثير من الخلق وأصبحت عبادتهم والتقرب إليهم أمرا معروفا لا ينكرونه بل يعدونه من علامات الصلاح والهداية وتوقير الصالحين وجهلوا

وأعرضوا عن التوحيد الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ودعا إليه وحذر أمته من الوقوع في الشرك.

(وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ (النجم: ١٩، ٢٠)).

استدل الشيخ على شرك عبادة الأوثان بقوله تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى).﴿٢٠ النجم﴾ وفي هذه الآيات يقرع الله المشركين وينكر عليهم اتخاذهم الأوثان يعبدونهم من دون الله ويقول لهم: أفرأيتم هذه الآلهة التي عبدتموها من دون الله هل نفعتكم أو ضرتكم حتى تكون شركاء لله؟ وسبب ذلك أن مشركي العرب اتخذوا بيوتا أوثانا فأهل الطائف عبدوا اللات وهي صخرة بيضاء لها أستار وسدنة بنوا عليها بيتا وكان موضع رجل صالح فلما مات عكفوا على قبره واتخذوه وثنا من دون الله أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قَوْلِهِ:(اللاّتَ والْعُزّى): كان اللات رجلا يلت سويق الحاج). وأهل مكة عبدوا العزى واتخذوها وثنا من دون الله وكانت ثلاث سمرات عليها بناء وأستار في وسطه شيطانة في موضع نخلة بين مكة والطائف. وأهل المدينة عبدوا مناة وكانت في موضع المشلل عند قديد بين مكة والمدينة قالت عائشة رضي الله عنها في الأنصار: (كانوا يهلون لمناة وكانت حذو قديد). وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعا: (مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: واللاّتِ والعُزّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ، ومَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِرْكَ، فَلْيَتَصَدَّقْ). وكان لكل قبيلة وناحية طاغوت يعبدونه من دون الله قال ابن كثير: (وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها). وقد كانت العرب تتقرب لهذه الآلهة الباطلة يشركون بها مع الله فيعكفون عندها ويطوفون بها كما يطوفون بالكعبة وينذرون لها ويذبحون لها القرابين ويستشفعون بها إلى الله فلما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة وظهر الإسلام

أمر النبي بإزالة جميع الأوثان في سائر البقاع وبعث إليها وجهاء الصحابة فهدموها وأبطل شركهم وأمر ببناء المساجد ودعا إلى التوجه إلى الله وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ). رواه مسلم.

(وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيُنَوِّطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالَ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. الحَدِيثَ).

استدل الشيخ على شرك عبادة الأشجار بحديث أبي واقد الليثي يخبر فيه حال الصحابة رضي الله عنهم في مبتدأ إسلامهم أنهم خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين فشاهدوا المشركين يعكفون عند شجرة من السدر مقدسة عندهم يعتقدون أن لها مزية عند الله فيتقربون لها ويستشفعون بها إلى الله ويعلقون بها أسلحتهم لينالوا بركة النصر على عدوهم وهذا هو حقيقة الشرك بالله تعلق القلب بغير الله وصرف العبادة له فظن الصحابة رضي الله عنهم أن هذا العمل مشروع ونافع فلما مروا بسدرة طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يتبركوا بهذه الشجرة كما يتبرك المشركون فأنكر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بشدة وبين لهم أن هذا التبرك باطل وهو نوع من الشرك الخفي لا يليق بالله تعالى لأنه تعلق بخرافة لا تنفع ولا تضر وبين أن مقالتهم الشنيعة تشبه مقالة قوم موسى فقال: (اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: (ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ).﴿١٣٨ الأعراف﴾ لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ). رواه الترمذي. ولم يرد الصحابة من طلبهم التقرب لغير الله وعبادة المخلوق لأن هذا شرك أكبر ينزه عنه الصحابة الذين عرفوا التوحيد وتبرأوا من عبادة الأوثان وفروا من الكفر وإنما طلبوا التبرك بالشجرة يعبدون الله عندها ويعتقدون أن لها مزية في قبول الدعاء والعمل الصالح وقد وقعوا في هذا الخطأ لأنهم حديثوا عهد بكفر لم يفقهوا الدين وهذه شبهة تنطلي على الجاهل. وكذلك هم لم يفعلوا هذا التبرك البدعي وتشبيه النبي مقالتهم

بمقالة قوم موسى لا تقتضي مشابهتهم في الشرك الأكبر وإنما المقصود المشابهة في اتخاذ سبب لا ينفع ولا يضر كحال المشركين والتبرك بالمخلوق والغلو فيه يريد إلى الشرك الأكبر قال ابن تيمية: (فأنكر النبي صلى الله عليه وسلم مجرد مشابهتهم للكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها معلقين عليها سلاحهم فكيف بما هو أعظم من ذلك من مشابهتهم المشركين أو هو الشرك بعينه؟ فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها ولم تستحب الشريعة ذلك فهو من المنكرات وبعضه أشد من بعض). والمهم في هذا الدليل بيان أن المشركين كانوا يشركون مع الله الأشجار يعبدونها من دون الله.

والحاصل أنه متى حصل الشرك في العبادة تحقق الكفر بالله وصار المشرك غير معصوم في الدنيا مهما كان شركه وتنوع معبوده فكل من أشرك مخلوقا مع الله في العبادة وتقرب إليه كان مشركا سواء كان إلهه قديما أو حديثا جمادا أو حيا سماويا أو أرضيا أيا كان جنسه ونوعه ومادته قال تعالى: (وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ).﴿٣١ الحج﴾ وقال تعالى: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا).﴿٣٦ النساء﴾ وقال تعالى: (أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا).﴿١٥١ الأنعام﴾ وبهذا تزول شبهة المشركين المعاصرين الذين يزعمون أن حقيقة الشرك مقصور على عبادة الأولين للأوثان وأن النصوص الواردة في وعيد الشرك تنزل على مشركي العرب ولا تتناول المتأخرين وهذا زعم فاسد مخالف للكتاب والسنة ومذهب سلف الأمة.

(الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانَنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ، لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانَنَا شِرْكُهُمْ دَائِمٌ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّة؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٥). وَاللهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ).

ذكر الشيخ فرقا عظيما بين المشركين الأولين والمشركين المتأخرين يدل على شدة جهل مشركي زماننا وغلو شركهم مع اشتراكهم في وصف الشرك لأنهم صرفوا العبادة لغير الله عز وجل والفرق هو أن الأولين كانوا حال الرخاء والسراء يشركون مع الله وإذا وقعت بهم الشدة والضراء وفقدوا الأمن أخلصوا العبادة لله لأنهم يوقنون أن آلهتهم لا تحميهم في الشدائد وأن العاصم والمنجي حقيقة هو الله تعالى قال تعالى: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ).﴿٦٥ العنكبوت﴾ وإذا أمنوا وزال خوفهم رجعوا إلى شركهم وأعرضوا عن التوحيد قال تعالى: (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا).﴿٦٧ الإسراء﴾ قال ابن جرير: (يقول: أخلصوا لله عند الشدة التي نزلت بهم التوحيد وأفردوا له الطاعة وأذعنوا له بالعبودة ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم ولكن بالله الذي خلقهم). أما المشركون المتأخرون فلجهلهم وعظم غفلتهم وغلوهم يشركون بالله في جميع أحوالهم في السراء والضراء بل يشتد تعلقهم والتجاؤهم إلى معبودهم حال الشدة أكثر من حال الرخاء وهذا هو الفرق الأول بين المشركين المتقدمين والمشركين المتأخرين. وهناك فرق عظيم آخر وهو أن المشركين المتقدمين يفقهون معنى كلمة التوحيد لكنهم جحدوا بها عن علم ولذلك لما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإقرار بكلمة

التوحيد لم يستجيبوا له ولم ينطقوا بها لأنهم يوقنون أن معناها إخلاص العبادة لله دون ما سواه وأن المتكلم بها يجب عليه أن يلتزم بترك عبادة الأوثان وقالوا: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ).﴿٥ ص﴾ عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: (مَرِضَ أَبُو طَالِبٍ فَجَاءَتْ قُرَيْشٌ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَ رَأْسِ أَبِي طَالِبٍ مَجْلِسُ رَجُلٍ، فَقَامَ أَبُو جَهْلٍ كَيْ يَمْنَعَهُ ذَاكَ وَشَكَوْهُ إِلَى أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، مَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ؟ قَالَ: يَا عَمُّ، إِنَّمَا أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً تَذِلُّ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا جِزْيَةُ الْعَجَمِ. قَالَ: كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ؟ قَالَ: كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ. قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. قَالَ: فَقَالُوا: أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ؟! قَالَ: وَنَزَلَ فِيهِمْ: (ص ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)﴿١ ص﴾ حَتَّى بَلَغَ: (إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ)﴿٧ ص﴾). رواه الحاكم.

فالمشركون المتقدمون فهموا المراد من لا إله إلا الله على الفور ثم أنكروا وتعجبوا كيف نهى الله عن اتخاذ جميع الشركاء والأنداد والآلهة وجعل العبادة خالصة لله وحده. أما مشركو زماننا فيجهلون معنى كلمة التوحيد فتجد أحدهم يردد لا إله إلا الله ليلا نهارا وهو تارك للعمل بمقتضاها ناقض لمعناها غير منقاد لها لأنه يشرك مع الله الأولياء ويصرف العبادة لهم من دون الله ويظن أنه مسلم فلا تنفعه عند الله ولا تنجيه يوم القيامة لأنها في اعتقاده الفاسد تدل على معنى الربوبية خالية من معنى الألوهية والتوحيد الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا يبين جهل وفساد دعاة الشرك الذين يزعمون أن مجرد التلفظ بكلمة التوحيد يكون به المرء موحدا وينجيه يوم القيامة ولو دعا غير الله وتلبس بالشرك.

والحاصل أن الفرق بين المشركين الأولين والمتأخرين في أمرين:

الأول: أن المشركين الأولين يشركون بالله في الرخاء ويخلصون له في الشدة قال تعالى: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ). أما المتأخرون فيشركون بالله في الرخاء والشدة وهذا يدل على عظم جهلهم وغفلتهم.

الثاني: أن المشركين الأولين يفهمون معنى كلمة التوحيد ويجحدون بها عن علم قال تعالى: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ). ﴿ص ٥﴾ أما المتأخرون فيجهلون معنى كلمة التوحيد فتجد أحدهم يردد لا إله إلا الله ليل نهار وهو يدعو غير الله ويشرك به الأولياء أصحاب القبور.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات